التقرير التمهيدي

الدكتور محمد حجي

أستاذ بكلية الآداب ــ الرباط

قد يتساءل المرء لماذا تقام هذه الندوة الدولية حول وضعية المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي ؟ ولماذا تحشد كل هذه الطاقات للبحث في موضوع قد يبدو لأول وهلة ان أمره قد تكفلت به فهارس المكتبات التي نشر ويُنشر العديد منها ؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات تقتضي الحديث عن أهمية المخطوطات العربية عموما، ودور الغرب الإسلامي في إثراء التراث العربي والحفاظ عليه عبر العصور، غير أننا قبل أن نخوض في هذا المجال بكل ما يمكن من التجرد والإيجاز، نود أن نشير إلى أن الندوة ليست غاية في حد ذاتها، تُنشر صحفُها لتُقتل بحثا ونقاشا في أيام معدودات ثم تُطوى. وإنما هي بمثابة ما يقدم في أول الوجبة من «مقبلات» لفتح شهية الأكل إلى التهام ما يأتي بعد من صنوف الطعام.

إن مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، وهي تستقبل كل يوم عددا غير قليل من الباحثين، سواء من المتمرسين المتمكنين، أو الشباب الواعدين، قد اختارت في الواقع صنفا معينا من القراء عندما اختارت لمادتها المكتبية موضوعين أساسيين هما الدراسات الإسلامية، والعلوم الإنسانية. وغير خاف ما كان للمسلمين من بالغ الإهتمام بهذا النوع من الدراسات عبر الحقبة وما أنتجوه فيها من كتب مطولاتٌ، ورسائل مختصرات، وما عرف لهم فيها من حوار وردود ومناظرات، مما يعد ثروة فكرية لا يستهان بها، وإسهاما جديا في الحضارة الإنسانية بوجه عام. ذلك ما تريد المؤسسة أن تثير انتباه زبنائها الباحثين إليه، ليطلعوا، أو بالأحرى ليزدادوا اطلاعا على هذا التراث المخطوط الضخم، ويتعرفوا عن قرب

على ما يزخر به من عطاءات وإمكانات، وما يقف دونه من صعوبات ومعوّقات، فيقبلوا على إحيائه وتجديده، تعريفا وتنظيما وتحقيقا. وستتلو هذه الندوة الموسعة بحول الله ندوات مصغرة تخصص كل واحدة منها لدراسة مخطوط من المخطوطات المتعلقة بالدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية.

قد تكون المخطوطات العربية أكثر المخطوطات في العالم، لا لكون العرب أكثر الأمم عددا، ولا لكون حضارتهم أعرق الحضارات وأطولها زمنا في مسار التاريخ. وإنما لكون العربية لغة القرآن، ومن ثم لغة الإسلام، أصبحت القاسم المشترك بين جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها منذ القرن الهجري الأول حتى مطلع قرننا القرن الخامس عشر هذا، ولا حاجة إلى التذكير بإسهام المسلمين — على الصعيد العالمي — في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية لا سيما في القرون الستة الأولى التي امتازت بالخلق والإبداع، فكان التراث العربي الضخم الذي استفادت منه الإنسانية قاطبة، مثلما استفادت قبل من التراث الإغريقي واللاتيني، وهي على درب التطور والتدرج نحو الحضارة الغربية التي نعيشها.

وقد تنبه الأوربيون في مطلع عصر النهضة إلى ظاهرة عالمية اللغة العربية وبالتالي وحدة مفاهيم المخطوطات العربية وتداولها على امتداد رقعة العالم الإسلامي. وسجل عالم أندلسي — مغربي يدعى أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي في هذا الصدد حوارا طريفاً جرى بينه وبين علماء هولنديين في لايد سنة 1612، وذلك في كتابه**ناصر الدين على القوم الكافرين** الذي نشره في السنة الماضية الزميل الأستاذ محمد رزوق. كان أحد هؤلاء الهولنديين قضى سنوات في بلاد الهند، وحمل معه منها مخطوطا عربيا في التصوف يتحدث عن سيرة صالح كان لا يكلم أحدا في الجامع، وإذا اضطر إلى الإجابة خرج إلى الباب وتكلم. حمل الرحالة هذا الكتاب إلى أفوقاي وطلب منه إن كان يستطيع قراءته. فاطلع عليه وقال : فهمت كل ما فيه وباستطاعتي أن أترجمه إلى اللغة الأجنبية تعجب الهولنديون وقالوا : كيف تفهم أنت ما كتب في بلاد بينها وبين بلادك مسافة سنة في البحر تقريباً. ونحن في أوربا متجاورون ولغاتنا شتى لايفهم بعضنا البعض !

ونشير إلى أن أفوقاي كان يعرف إلى جانب العربية، الاسبانية والبرتغالية والفرنسية من اللغات الحية، كما كان يعرف اللغتين الإغريقية واللاتينية، وهو الذي ترجم من الاسبانية إلى العربية **كتاب العز والمنافع**، لمواطنه إبراهيم بن أحمد بن نافع الأندلسي التونسي، وسيتحدث لنا عنه الأستاذ حسين مؤنس.

إذا كان الشرق الإسلامي قد سبق في ميدان الإنتاج الفكري مع العباسيين في بغداد، فإن الغرب لم يلبث أن دخل حلبة السباق العلمي مع الأمويين في قرطبة، والأغالبة في تونس، والمرابطين والموحدين في مراكش، ثم لم ينقطع التأليف عند المسلمين حتى في عهد ما سمي بعصر الإنحطاط، بل ازداد كماً — على الأقل — في هذه الفترة، وظهر علماء موسوعيون أفذاذ أمثال ابن خلدون، وابن خلكان، والقلقشندي، والجلال السيوطي، وأحمد المقري، وأحمد ابن القاضي، وأضرابهم كثير.

ومثلما تعرضت المخطوطات العربية لكارثة الإغراق والإحراق في الشرق على يد التتار، تعرضت المخطوطات العربية في الغرب بعد نهاية دولة الإسلام في الأندلس إلى ضروب من الإتلاف على يد محاكم التفتيش الرهيبة. ثم بُعثر عدد كبير من هذه المخطوطات التي استطاع أن يخرجها المهاجرون الأندلسيون المطرودون في جملة ما سُمح لهم بحمله من أمتعتهم النفيسة على ظهورهم، وشُتت في مختلف بقاع الأرض التي التجؤوا إليها شرقاً وغرباً، إذ وصلوا كما هو معلوم حتى إلى أميركا. ولم يسلم من التراث الأندلسي المخطوط — نسبيا — إلا ما نقل إلى العدوة المغربية، وبخاصة المغرب الأقصى.

لا أريد، أيها السادة والسيدات، أن أستمر في رسم هذه الصورة القاتمة عن المخطوطات العربية التي عرفت محنة أخرى لا تقل شراسة عن سابقاتها خلال القرنين الأخيرين مع الاستعمار الغربي المتسلط على العالم الإسلامي، وذلك عن طريق السلب والنهب، والتحريف والتعتيم، حتى عد بعضهم ثبات التراث العربي المخطوط لكل هذه الخطوب من معجزات التاريخ.

إن من حسنات هذه الندوة أن جمعت في صعيد واحد علماء متخصصين من مختلف جهات المعمور، آصرتُهم اهتمامٌ مشترك بالمخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، ليتحدثوا إلى الحضور الكريم عن الوضعية الحالية لهذه المخطوطات أو عن بعض الجوانب العلمية والتقنية في طرق التعامل معها. أتوا من المغرب وموريطانيا والجزائر وتونس ومصر والمملكة العربية السعودية، والكويت، وتركيا، ومن إسبانيا، وفرنسا، وإنجلترا، والنمسا، وألمانيا، وهولاندا، وأميركا.

إن هناك أقطارا أخرى توجد بها مجموعات من المخطوطات العربية غير ممثلة هنا، كما أن ثمت خزانات كثيرة للمخطوطات العربية في المساجد والزوايا بالمغرب وسائر البلاد الإسلامية، سنستمع إلى عرض نموذج واحد منها فقط بزاوية تنغملت،

إضافة إلى مكتبات خاصة لا تقع تحت حصر. وأحسن نموذج لها كتاب **خلال جزولة** للمرحوم المختار السوسي الذي طاف أثناء إقامته الإجبارية بسوس في منتصف القرن الهجري الماضي على عشرات الخزانات وسجل في هذا الكتاب بعض ما اطلع عليه فيها في أربع مجلدات.

إن هذه الندوة ليست غاية في حد ذاتها ــ كما قلت في البداية ــ وليست الوحيدة من نوعها في مشارع مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء وإنما هي فرصة لطرح قضايا التراث العربي المخطوط، ومناقشتها من طرف مختصين خرّيتين، وإفساح مجال الحوار أمام الباحثين والمهتمين بهذا اللون من التراث العربي الإسلامي من أجل استعداد أحسن للإسهام في الندوات المتخصصة المقبلة التي ستعمل على تحليل وتفصيل ما تجمله هذه الندوة الأولى.

I

وضعية مخطوطات الغرب الإسلامي في المكتبات العربية واللاتينية